نظرية التطور والتحليل النفسي

د. حافظ لصفر

دكتوراه في علم النفس الاجتماعي

اتباعا لمنهج السير في الأرض من الوجهتين العلمية والتاريخية اللذان حددهما القرآن الكريم في المجالين النفسي والاجتماعي قبل العلم الحديث بما يربو عن أربعة عشر قرنا، لكن التطوريين ما زالوا يتمادون في غيّهم متشبثين بافتراضات داروين الخادعة.

إنهم يتشبثون بافتراضات داروين للاعتبارات التالية:

- للخلق بداية، وهذا يعني أن الحيوانات والانسان لم تكن بدائية في يوم من الأيام.
- الخلايا ظهرت بدون تطور، لأنها مركبة وليست بسيطة
- ظهور البكتريا وعدم تطورها منذ ظهورها إلى يومنا هذا
- الانفجار الكمبيري وغيره، يبين أن الكائنات الحية تظهر بدون روابط مع سابقاتها: لا وجود للتطور بالمطلق
- الفرضيات التطورية مستمدة في أصولها الفلسفية من تأملات فلاسفة ما قبل سقراط ومن أساطير هوميروس
- تغير مسار علم الاجتماع التطوري بفعل إسقاطاته لفرضيات داروين من الميدان البيولوجي الى الميدان الاجتماعي
- فرضيات التطور مجرد خرافة وإيديولوجية مضللة لا علاقة لها بالعلمية
- المنهج القرآني في الحياة الاجتماعية يتميز بالشمولية والكلية، ولا يميز بين الأجناس البشرية، بل أساس التفاضل هو معيار التقوى،عكس التطورية التي تتصور أن البقاء للأقوى الذي انتقته الطبيعة واستطاع التكيف معها.

لقد تراءى لسيجموند فرويد النمساوي اليهودي، أن ما اكتشفه في اللاشعور مثل استباقا، لما كان يحصل مع البشر في الواقع، غير أن إليزابيت رودينسكو اختارت أن تعكس هذه المقولة، لتبين بأن ما اعتقد فرويد أنه اكتشفه، لم يكن في العمق غير ثمرة مجتمع، ومحيط عائلي، ووضع سياسي، راح

يفسر دلالته بألمعية ليجعل منه نتاجا للاشعور[1]، أي أن اللاشعور كمفهوم فرويدي، ما هو إلا انعكاس للحياة الواقعية، مقسما البنية النفسية إلى ثلاث قوى تتصارع فيما بينها وهي: الهو والأنا والأنا الأعلى، وهذا التقسيم استمده من الصراعات النفسية التي كان يلاقيها في نفسه، وصراعاتها الداخلية، وعندما أرجع جميع السلوك الإنساني إلى اللاشعور، وغيب العقل تماما، يكون قد رجح كفة الميول الغريزية والشهوانية الحيوانية – البهيمية، وأقصى البعد القيمي – الأخلاقي فيه، حيث أنه استمد هاته الفكرة من نظرية داروين التي تعتبر الإنسان حيوانًا جنسيًا، فهو لا يملك إلا الخضوع والإذعان لأوامر وتوجيهات الغريزة، وإلا وقع فريسة الكبت المهدم في تصوره، وفسر بفرضيات التطور الدين تفسيرا جنسيا باعتباره هو الشعور بالندم من قتل الأولاد لأبيهم الذي حرمهم من الاستمتاع بأمهم، ثم صار عبادة للأب – عقدة أوديب – ثم عبادة الطوطم، ثم القوى الخفية في صورة دين سماوي، وهذ ما سماه عقدة أوديب، واستغلتها الصهيونية، لأنها وجدت فيها ضالتها لتبرير عنصريتها المقيتة[2]، وأكد أوستن كلارك أنه لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيرها، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة، وفي نفس الشكل الذي تراه عليه الأن[3]، ففي العصر الكمبري ظهر، ولم يحدث عليه أدنى تحول أو تطور كما تدعي فرضيات التطور، ولم ينبثق عن السلف الحيواني، وبذلك تم إبطال أسطورة التوالد الذاتي ذات الجذور الفلسفية الأرسطية.

لقد فتن فرويد بداروين وجذبته عقيدته، حيث افترض الأخير تطور البشر في خط غير متقطع من حيوان إلى آخر الأنواع، أظهر فرويد أن الانسان لا يتحكم في أهم جوانب من عملياته العقلية، واستحضر مرضى الهستيريا كإيمي فون واليزابيث فون، ذكرته أثناء العلاج بمبادئ دعا إليها داروين، تشرح التعبير عن المشاعر من خلال مبدأ فيض الإثارة، وتعتبر نظرية القلق الفرويدي أصلها داروينى على أساس أن العاطفة تكيفية بطريقتين، لأنها تهيء الحيوان للخطر، ليس من خلال تعبئة الطاقة فقط، بل والمساعدة في التكيف على أساس طبيعة التهديد في ظل ظروف معينة، حيث تطغى الإثارة الزائدة غير المنظمة وغير

[1] اليزابيت رودينسكو، سيجموند فرويد في زمانه وفي زماننا، صدر ضمن مبادرة أضواء على حقوق الانسان في حقوق النشر، معرض أبو ظبي الدولي للكتاب ص:10

[2] موسوعة المذاهب الفكرية المعاصرة، الداروينية.

[3] الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، الندوة العالمية للشباب الإسلامي

القابلة للتكيف، إذ طابق بين تطور البشرية منذ نشأتها حسب الافتراض الداروينـي، والتطور الفردي لطفل اليوم، كما أن نظريته أفسدت الأخلاق بدعوتها لإشباع الملذات وعدم كبتها، وشجعت الشذوذ الجنسي كالمثلية التي أصبحت علنية ومدعمة من جهات دولية ومحافل سرية تعمل ليل – نهار لتدمير القيم الدينية والقيمية والأخلاقية، حيث أرجع العقد والاضطرابات إلى الصدمات في فترة الطفولة والكبت الجنسي، وسمى ذلك بمبدأ اللذة، وكانت دعوة علنية منه للإباحية والتنصل من القيم الأخلاقية، وفي اعتقاده كلما أشبع الفرد غرائزه وشهواته إلا وتخلص من اضطراباته، وبهذا وضع الإنسان في سلم الحيوانات غير العاقلة، وكان فرويد من خلال كتاباته منطلق الشرارة لما يسمى بالثورة الجنسية التي جعلت البعد الإستيطيقي – الجماليوالإيتيقي – الأخلاقيمنحلين وفي الحضيض، متخذة المحافل السرية والدول الكبرى نظريته نبراسا لتفكيك الأسرة المسلمة عن طريق تحرير المرأة من خلال الكتاب والأدباء التحرريين كقاسم أمينو وغيره، وعبر عرض الخلاعة والعري المفضوح في شاشات السنيما والتلفاز في إطار منطق التلقي الضمني، وبعد ذلك يتحول الموضوع إلى أشياء عادية مستهلكة ومألوفة، تستسيغها الفطرة السليمة، فما راح يفسره فرويد في العمق سوى ثمرة مجتمع ومحيط عائلي ووضع سياسي راح يفسر دلالته بألمعية ليجعل منه نتاجا للاشعور[1]، لقد آمن بنظرية النشوء والارتقاء الداروينية، واعترف في كتابه: حياتي والتحليل النفسي، بأن إيمانه بالداروينية، كان له دور في إرساء أسس التحليل النفسي، رغم أنها فرضية بسيطة، تطورت إلى أن تحولت إلى منظومة فلسفية عقدية تنفي مبدأ الألوهية، وتتبنى نهج الإلحاد، كما تبنى أيضا تلميذه يونغ فكرة اللاشعور الجمعي، وسماه بالحياة الروحية معتنقا فرضيات التطور الداروينية، ومعتبرا الحياة الروحية ترسبات عبر القرون لاعتقادات البشر منذ نشأة الجماعة البشرية الأولى على الكوكب، وفسر ما يعج بداخل باطن الإنسان بالرجوع إلى عالم اليوجا، لأنه عجز عن تفسير الاضطرابات النفسية، واعتبرها من جنس العمليات التي تحصل عند البدائيين أو اليوجيين، حيث يقول: نعلم اليوم أنه داخل النفس توجد عمليات تغيير ذات طابع روحي وراء العمليات التدريبية التعليمية التي نطالعها في علم النفس البدائي أو في الحالات الناتجة عن حركات اليوجا[2]، التحليل اليونجي العليل أخطر من التحليل الفرويدي الغريزي، وعلى المعالج النفسي المسلم أن ينتبه لهذه

[1] نفس مرجع اليزابيث رودينسكو،
[2] عبد السلام الوزاني، العلاج النفسي: خطورة المنطلق، دار الأمان، الرباط - المغرب، الطبعة الخامسة 2021، ص:119

المنطلقات، وهو يطبق هذه الفنيات، لأنها في النهاية تؤدي إلى الإلحاد وإنكار مبدأ الألوهية، في حين أدلر اعتبر الطبيعة أمدت الحيوانات بمخالب وأظافر لحماية نفسها، ودفعت الإنسان إلى غريزة التجمع بكل أنواعه، واعتبر اللغة جزء من غريزة التجمع وبقاء النوع، وبهذا فهو متبن للفرضية الداروينية الملحدة.

طبق فرويد فرضيات الاضطرابات العقلية المستوحاة من النظرية اللاماركية النفسية لأوغست بولي ١٨٧٣/ ١٩٣٣ – وإرنست هيكل ١٩١٩/ ١٨٣٤ لاستنادهما على مبدأ وراثة الخصائص المكتسبة التي تم دحضها من خلال الاكتشافات البيولوجية ما بين الحربين العالميتين، ولم يتخلى فرويد عن فكرة الذكريات اللا واعية الموروثة، وقال سولاي: لم يكن تأثير داروين المباشر وغير المباشر أكثر نموذجية أو مثمرا خارج علم الأحياء المناسب أكثر من التحليل النفسي الفرويدي، كما فسر فرويد الأعراض الهستيرية كبقايا لسلوكيات غريزية وظيفية سابقا، واعتبر أن بعض أنواع الرهاب بمثابة بقايا عاطفية من عصور ما قبل التاريخ للجنس البشري، وتظهر فرضية النقل الوراثي لبعض البقايا العاطفية في الطوطم والمحرمات[1]، وشرح ظهور العصاب الوسواسي والاضطراب النفسي النرجسي – خرف، رهاب، جنون العظمة... هوس – من خلال التأثيرات الاجتماعية اللاحقة بدء من ضرورة القمع الغريزي الى عواقب مختلفة للسيطرة الأبوية، فما طرحه مجرد تكهنات وتناقضات مفرطة، واعتبر النشاط الجنسي للإنسان نشأ من تغيير جذري في بيئة أسلافه، وهذا ما دعا فرويد إلى تفسير الاضطرابات النفسية بالخبرات الماضوية التي مر بها الإنسان في طفولته، وما راكمه من خبرات أليمة، أي اهتم بإعادة بناء الفترات المبكرة والأكثر غموضا لبدايات الطفولة عند الجنس البشري، واستمد تصوره من النظرية التطورية التي اعتمدت آلية الانتخاب الطبيعي، وعوضها بوراثة الخصائص المكتسبة على أساس أن داروين افترض أن بعض السلوكيات المنعكسة المكتسبة في البداية تحت العاطفة يمكن أن تنتقل إلى الأجيال اللاحقة مثل: هروب بعض الحيوانات – أمام الإنسان متأثرا أيضا بنظرة لا مارك في كتابه "فلسفة علم الحيوان "مؤداها أن الاحتياجات لن تغير الأفراد فقط من خلال أفعال متكررة، لكنها ستؤثر مرة أخرى على الجسد، وبالتالي يقبل تفسيرات داروين بأن التغير التطوري جاء من نوع الوعي البدائي المتأصل في طبيعة جميع الأنواع البيولوجية، ويعمل عضويا لأغراض التكيف الذاتي التي تتضمن احتياجات أو رغبات نفسية لتحقيقها العضوي، حيث استمد مفهوم الحاجة للامارك سوى قوة الأفكار اللاواعية على الجسد، ووجه كارل بوبر

[1] سيجموند فرويد، الطوطم والمحرمات، ص:225

نقدا لاذعا لمدرسة التحليل النفسي، لأنها ذاتية وخارج اكلينيكية، وغير قابلة للدحض والتفنيد المنهجي والتجريبي، أي غير قابلة للتجريب علميا وفق مبدأ التكذيب، وصنفها ضمن دائرة الفكر الأسطوري.

طابق فرويد بين تطور البشرية منذ نشأتها حسب الفرضية الداروينية، أي التطور الفردي لطفل اليوم، حيث قام بمقارنات بيولوجية مكنت من الاعتراف بأن التطور النفسي الفردي يكرر تطور البشرية[1]، معتبراً مخططات النشوء والتطور التي يمتلكها الطفل عند الولادة هي رواسب تاريخ الحضارة الإنسانية... هذا التراث الغريزي المترسب سيشكل جوهر اللاوعي الفرويدي – الطوطم والمحرموهذا الطرح إقصائي للأبعاد الدينية والروحية والأخلاقية في الإنسان، حيث تصور للإنسان في نموه مراحل تجلت في الحيوانات الدنيا والعليا، والهمجي والمتحضر، إذ ميز داروين بين الأعراق الدنيا والمتفوقة، والدول المهيمنة الراقية كبريطانيا وأمريكا،وأخرى ضعيفة، ووظف هاته الأفكار لدعم آرائه حول تقدم الحضارة من خلال القمع والكبت للدوافع الغريزية في كتابه الحب والحضارة، مما جعل ظاهرة التسامي ضرورية، لأنها وجهت الطاقة البشرية إلى ما هو نبيل، إلا أن فكرة التسلسل الهرمي للقيم بين الأجناس البشرية أصبحت غير مقبولة لما خلفته من جرائم وتجاوزات وإبادات في حق الإنسانية، ولم يعد ممكنا أيضا افتراض تكافؤ بين إنسانية ما قبل التاريخ أو الشعوب البدائية اليوم وبين الطفل[2]، وعلى عكس أستاذه، تصور أدلر أن الغريزة الجنسية ليست المصدر الذي ينبع منه السلوك الإنساني، والطاقة التي تدفع للعمل ليست الكبت الجنسي، حيث استعار قانونا من علم الحياة الداروينى هو قانون قدرة الكائن الحي على رد التوازن إلى وظائف أعضائه، أي تعويض عضو بأخر في حالة القصور الوظيفي[3]، وفي تصوره اقترب من الحدس البرجسوني.

المراجع:

- الدكتور رفعت السيد العوضي "اعجاز القران الكريم في مجالات العلوم الاجتماعية مع التطبيق على آيات تشريع الميراث "دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة جامعة الازهر مصر، طبعة ٢٠٠٨.
- الدكتور محمد البستاني "الاسلام وعلم الاجتماع" موسوعة الفكر الاسلامي مجمع البحوث الإسلامية للدراسات والنشر بيروت – لبنان الطبعة الأولى ١٩٩٣.
- الدكتور صلاح عثمان "مشكلات فلسفة العلم: الداروينية والإنسان: من العلم إلى العولمة منشأة المعاف بالإسكندرية طبعة ٢٠٠١ ص ١٤٢.
- ويكيبديا "التطور: نظرية في أزمة" كتاب من تأليف مايكل دونتن "
- الدكتور طالب الجنابي "نظرية التطور الداروينية: خرافة ام علم؟ دار الاضواء للطباعة والنشر طبعة ١٩٨٩.
- الدكتور ستيفن ماير"شك داروين: النشوء المفاجئ لحياة الكائنات وحجة التصميم الذكي" ترجمة الدكاترة مؤمن الحسن وموسى ادريس وآخرون مركز براهين للدراسات والابحاث الطبعة الأولى ٢٠١٢.

[1] سيجموند فرويد، تاريخ العصاب الطفولي طبعة 1910

[2] Roger perron, darwin, darwinism and psychologysis,encychlopedia.com

[3] إسحاق رمزي، علم النفس الفردي: أصوله وتطبيقه، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، ص:224